

المكتبة

دافيد كويرفيل

بقلم : عادل الغضبان
عن : شارلز ديكنز



دار الخراف



داقید کو بر فیلد

افلاکنا

۲۱

داقید کو بر فیلد

بقلم : عادل الغضبان
عن : شارلز دیکنز

الطبعة السادسة



دارالمعارف



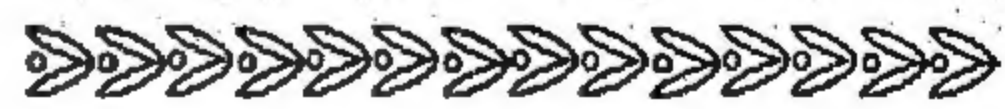
١

وُلِدْتُ يومَ جمعةٍ، ولمَّا انفتحتُ عيناى على نور هذا العالم ، كان
والدى قد أغْمَضَ جَفَنَيْهِ عنه منذ أكثرَ من ستّة أشهر : وكان أجلُّ
شخص فى أسرتنا ، عمّةٌ لوالدى تدعى « تروتوود » ولكن أمّى كانت
تسمّيها « بتسى » ، وكانت هذه العمّة آنسةً عانساً تقيم فى إحدى القرى
البعيدة عن مدينتنا .

ويغلُبُ على ظنّى أنّ والدى كان من هذه العمّة الرجل الحبيب
المدللّ، ولكنها لم تغفر له قطّ أنه تزوّج أمّى ، وآفةُ ذلك الغضب والسُّخْطِ
أنّ أمّى كانت فى نظرها ، فتاةً صغيرةً لا تصلح للزّواج ، ولقد كان أبى ،



•



والواقعُ أن أُمِّي كانت في مقتبلِ الشباب ، غير أن مظهرها كان يُوهِم
الرَّأْي أَنَّهُ أَصْغَرُ سِنًا مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ ، فطَاطَأَتِ الْمَسْكِينَةَ رَأْسَهَا ، كَأَن حَدَاثَةً
سِنَّهَا ذَنْبٌ ارْتَكَبْتَهُ ، وَقَالَتْ وَهِيَ تَشْرِقُ بِالْذَّمْعِ ، إِنَّهَا عَلَى صِغَرِ سِنِّهَا قَدْ
أَصْبَحَتْ أَرْمَلَةً ، وَسَوْفَ تُصْبِحُ أُمًّا . ثُمَّ نَحِيَمُ السَّكُوتَ عَلَى الْمَرَاتَيْنِ ،
فَرَفَعْتُ أُمِّي بَعْدَ قَلِيلٍ نَظَرَهَا ، فَإِذَا الْعَمَّةُ جَالِسَةٌ أَمَامَ الْمَوْقِدِ جِدِّسَةً الْمُتَذَمِّرَ ،
وَقَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ، وَشَبَكَتْ يَدَيْهَا عَلَى رُكْبَتَيْهَا ، وَوَضَعَتْ قَدَمَيْهَا
فَوْقَ حَافَةِ الْمَوْقِدِ . وَعَلَى حِينٍ فَجَاءَتْ ، رَفَعْتُ الْعَمَّةَ رَأْسَهَا وَقَالَتْ :

— « مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّكَ سَتَلِدِينَ أَنْتِي . . . نَعَمْ أَنْتِي مَا فِي ذَلِكَ
رَيْبٌ . . . نَفْسِي تَحْدِثُنِي بِأَنَّ الْمَوْلُودَ سَيَكُونُ أَنْتِي . . . فَاعْلَمِي يَا طِفْلَتِي ،
أَنَّ هَذِهِ الْأَنْثَى سَتَكُونُ مِنْذُ يَوْمِ وَلَادَتِهَا . . . » فَتَشَجَّعَتْ أُمِّي وَقَاطَعَتْهَا
قَائِلَةً :

— « أَوْ أَنَّ هَذَا الْغُلَامَ . . . » فَقَالَتِ الْعَمَّةُ مُغْضِبَةً :

— « قُلْتُ لَكَ إِنَّ نَفْسِي تَحْدِثُنِي بِأَنَّ الْمَوْلُودَ سَيَكُونُ أَنْتِي . . .
لَا تَقَاطِعِينِي . . . أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ صَدِيقَةً هَذِهِ الْأَنْثَى مِنْذُ يَوْمِ وَلَادَتِهَا . . .
وَسَأَكُونُ رَائِدَتِهَا . . . وَأَرْجُو أَنْ تَسْمِيَهَا ” تَرُوتُودَ كُوبَرْفِيلْدَ “ . . . هَلْ
كَانَ ” دَافِيدَ “ رَجُلًا كَرِيمًا الْأَخْلَاقُ مَعَكَ أَيْتَهَا الطِّفْلَةُ ؟ . . . وَهَلْ
كُنْتُمَا عَلَى وِفَاقٍ وَوِثَامٍ ؟ » فَقَالَتْ أُمِّي :

— « كُنَّا مِنْ أَسْعَدِ النَّاسِ ، وَكَانَ مَعِيَ طَيِّبَ الْقَلْبِ كَرِيمَ الْخُلُقِ ! »

— « لقد كنت يتيمَةً أليس كذلك ؟ »

— « نعم يا سيّدتى . »

— « ومربّية أطفال ؟ » فقالت والدتى فى سذاجةٍ وصراحةٍ :

— « كنتُ مساعدةً لمربّية أطفال ، فى منزلٍ كان المستر "كوبرفيلد" كثيرَ التردّد عليه ، فطلب منى أن يتزوّجنى فقبلت وتزوّجنا . » فقالت العمّة ونظرها لا يزال عالقاً بلهَبِ النار فى الموقد :

— « يا لكِ من مسكينة ! أتعرفين أن تقوى بعملٍ من الأعمال ؟ »
فقالَت أُمّى :

— « كان المرحوم زوجى يعلمنى ما أجهل ، ويساعدنى فيما يشقُّ علىّ . . . ولكن الموت اختطفه منى . . . » وبدأت أُمّى عند تذكّار والدى ، تنزّفيرٌ وتشهيقٌ ، فقالت العمّة فى صوتٍ رقيقٍ :

— « حسن . حسن . »

وازداد ألمُ المخاض على والدتى فانصرفت إلى غرفتها ، وجاء الطبيبُ بعد قليل يعودُها ويُعَنِّى بولادتها ، ولما فرغ من عمله ، لقيته العمّة عند باب الغرفة ، وسألته وهى مكتوفةٌ الذّراعين :

— « كيف حالُها ؟ » فقال الطبيب :

— « على خير حالٍ يمكن أن تكون عليه أمٌ حديثةُ السنٍ مثلها .
ولا أعارضُ فى أن تَرَبِّيها إذا شئتِ . » فقالت العمّة :

— « أسألكَ عنها هي كيف حالها ؟ » فقال الطبيب :
— « لقد حدَّثْتُكَ ياسيِّدتي عن حالها ، وقلتُ لك إنها بخيرٍ وسلامة . »
فقالَت العَمَّة متضايِقة :

— « قلتُ لك : هي . هي . أى الطفلة المولودة . » فقال الطبيب :
— « عُنْذُرًا يا سيِّدتي ، لقد كنتُ أظنُّ أنك تعلمين . . . إن المولود
غُلامٌ ذَكَرٌ . » فلم تُحِرِ العَمَّة جواباً ، بل تناولت قبعَها ولبستها وخرجت
من المنزل إلى غير رَجْعَةٍ .

وها أنذا أقصُّ قصَّةَ حياتي ، فإذا رجعتُ بالذاكرة إلى أيام طفولتي ،
بدت لي شخصيتان واضحتا المعالم كُلِّ الوضوح ، إحداهما أُمِّي بشعرها
الجميل ، وشبابها الغَضُّ ، وثانيتها خادمتنا « بيجوتي » بعينها السوداوين ،
ونَحْدَ يَئِها الأحمرين ، وذراعِها العَبَّيْلَتَيْنِ . ويخيَّلُ إلىَّ عند هذه الذاكرة ،
أني أرى أُمِّي والخادمة تداعبانِي معاً ، وأتذكَّرُ أصْبَع « بيجوتي » المملوء
بثقوب الإبرة ، وهو ممدود إلىَّ ليساعدني على المشي .

وإني لأتذكَّرُ أشياءَ أخرى من طفولتي : فهناك منزلنا والحديقة
وَبُرْج الحمام الخالي من الحمام ، وماوى للكلاب وليس فيه كلب واحد ،
وعددٌ من الدَّجَاج تَدْرَعُ صَحْنِ الدار ، وديكٌ لا يألُو ينظر إلىَّ ويقفز
من موضعٍ إلى موضعٍ ... وهناك مطبخ « بيجوتي » وأبْنِهاُ المنزل ،
ولا سيَّما البَهِو الكبير الذي كنا أنا وأُمِّي و « بيجوتي » نقضي فيه سهراتِنَا ،



الذى زارنا يوم الأحد الماضى ، فانشنى يداعب نحدى ، ولكننى نفرت من صوته ومن شكله ولا أدرى لماذا . وسمعتُ والدتى تشكره على عَنائِهِ باصطحابها إلى المنزل وسمعتَه يقول لى :

— « ألا تحيِّينى يا عزيزى تحيَّةَ المساء ؟ » فقلت :

— « عيمٌ مساءً يا سيِّدى . » فقال وهو يضحك :

— « هاتِ يدَكَ وصافِحتى ولنكنْ صديقهَيْن . » فمددتُ يدى وتصافحنا وانصرف . وتكررت زوراتُ هذا الرجل لنا ، وما كنتُ أزدادُ إلا نفوراً منه دون أن أستطيعَ إدراكَ سبب ذلك النّفور . وفى أمسيةٍ من الأماسى ، كانت والدتى قد خرجت كعادتها تتناول العشاء عند أحد الجيران ، وكنتُ أنا و « بيجوتى » نقضى الوقت معاً فقالت لى :

— « أتريدُ يا عزيزى أن تصحبنى لنقضى أسبوعين فى ضيافةٍ شقيقى ؟ » فقلت :

— « وهل شقيقُك رجلٌ طيب القلب لطيفُ المعشَر ؟ » فقالت وقد رفعتُ يدها إلى السَّماء مُستشهِدةً بها :

— « إنه يفيض رقةً وعدوبةً نفْس... ثم لا تنسَ أن القرية التى يسكنها ، تقعُ عند شاطئ البحر ، فهناك السُّفُن والمراكب وصيَّادو السمك ، وهناك أيضاً " شام " ابن شقيقى ، وسوف يسرُّه أن تصطحبنا وتلعبا معاً . » فأغرانى برنامجُ تلك الزَّيارة فقلتُ لها :

— « إنها السيدة ” جود “ . »

وهنا أخذتُ « بيجوتى » أى صاحبتى الخادمة « بيجوتى » تغمزنى بعينها ، وتطلب إلى أن أكفَّ عن مثل هذه الأسئلة ، فأذعنتُ لغمزاتها ، وعندما أويت إلى فراشى أفهمتنى « بيجوتى » أن هذه السيدة هى أرملة بحار كان شريك السيد « بيجوتى » فى امتلاك أحد القوارب ، فمات ولم يترك لها مورداً تعيش منه ، فكفل معاشها السيد « بيجوتى » وإن لم يكن على يسرٍ ورفاء ، فأكبرتُ فى نفسى مأثرة الرجل ، وأثنت على أريحيته . وفى الصباح ، ذهبت مع « أميلى » فانتى الصغيرة نجرى معاً على رمال الشاطئ ، ونجمع منه الأصداف . وعلى هذه الوتيرة من المرح والسرور ، قضيتُ الأسبوعين ، ثم قفلتُ راجعاً مع « بيجوتى » الخادمة إلى مدينتنا ومنزلنا .



أصحابها مكروه ؟ أماتت هي أيضاً ؟ » فقالت « بيجوتى » متلعثمة :
— « يا سيد ” دافيد “ . . . كان على . . . أجل كان على ” أن أقول
لك . . . أن أقول لك قبل اليوم . . . ولكننى لم أجده الفرصة مؤاتية . . .
كان على ” أن أقول لك إن لك اليوم والدأ . » فارتجفت مفاصلى ، وامنتقع
لبنى ، ونحيت إلى ” أن ” ربحاً من قبر والدى قد لفحت وجهى وأن الأموات
قد بعثوا من قبورهم . فقالت لى « بيجوتى » :

— « والدأ آخر . » فقلت مدهوشاً :

— « والدأ آخر ؟ ! » فقالت « بيجوتى » وقد غصت بالكلام :

— « تعال معى لتراه . » فقلت لها :

— « لا أريد أن أراه . » فقالت متلطفة :

— « وأمك ؟ ألا تريد أن تراها . »

وجدتني من يدي ، ودخلنا البهو الكبير ، فسارعت والدتى إلى
تقبلى فشعرت أن فى مسارعته إلى شيئاً من الحجل يُعرقّل خطواتها ،
ورأيت هناك السيّد « مردستون » وهو السيد الذى كان قد صحب أمى ذات
ليلة إلى المنزل ، فخفّ هو أيضاً إلى وقال :

— « كيف حالك يا عزيزى . » فصافحته ثم خرجت من البهو إلى
غرفى ، فإذا هى غير غرفتى القديمة ، ثم جلّت فى أنحاء المنزل والحديقة
فوجدت كل شىء قد تغير فيهما ، حتى مأوى الكلاب الخالى ففيه اليوم

مَعِيَ إِلَى الْبَهْوِ. « فَاِمْتَثَلْتُ لِأَمْرِهِ مُكْرَهًا لَا أَعِي ، وَلَمَّا نَزَلْنَا إِلَى الْبَهْوِ
قَالَ لِأُمِّي :

— « يا عزيزتي ” كلارا “ أعتقد أنه لن يضايقك بعد الآن ، في استطاعتنا إصلاح خلقه السيء . »

ولو أنّ هذا السيّد أفهمنى واقعة الحال ، واستعمل معى قليلاً من الرقة واللاطف لكان أسرنى مدى الحياة ، ولكنه شاء أن يستخدم قوّته وسلطانه فى تأديبى ، وأن يُكرِّهى على طاعته ولو عن سبيل الملتق والرياء .

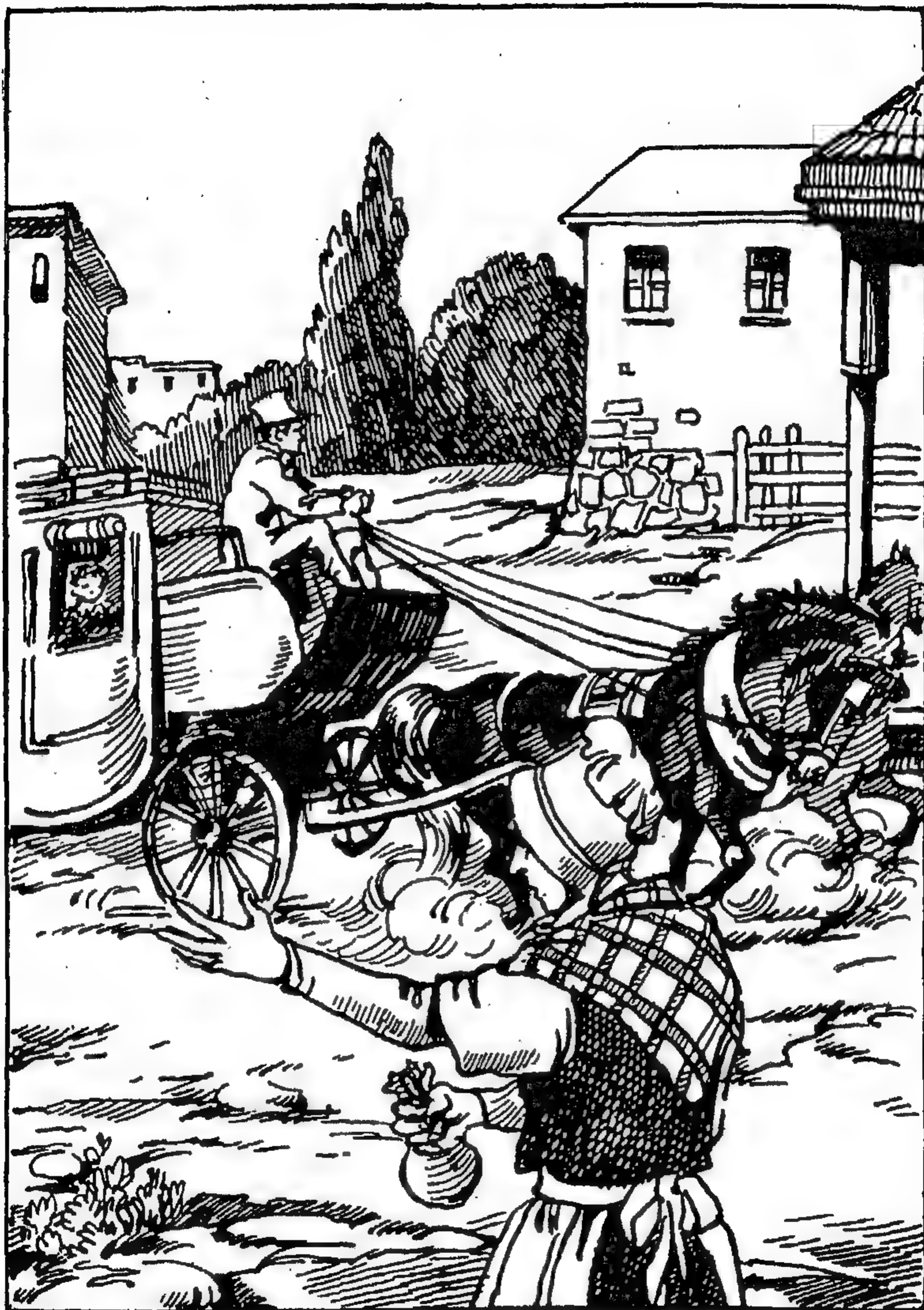
وفى مساء ذلك اليوم ، سمعنا صوتَ عجلاتِ مركبة تقف عند باب الحديقة ، وتنزل منها الآنسة « مردستون » شقيقة هذا السيد ، فرأيتها تشبهه فى سواد شعرها وقسوة نظرها ، وبعد أن نزلت من المركبة نقل الحوذى إلى المنزل حقيبتين لها كتّيبَ اسمها فوقهما بأحرفٍ من نحاس ، فلما فرغت وفرغنا من التحيات ، التفتت إلىّ وقالت تخاطب أمّى :

— « أهذا ابنك يا نسيبتى ؟ » فقالت أمّى :

— « نعم . » فقالت :

— « إني لا أحب الصبيان . »

فباعتُ هذه التحية الكريمة من هذه الأنسة الزائرة ، ولكنها لم تكن زائرة بل جاءت تقيم معنا ، وبعد زمن وجيز استولت على جميع المفاتيح في الدار ، وأصبحت فيها الآمرة الناهية على رضى من أمى وطواعية .





٣

مَضَى عَلَى رَجوعِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ نَحْوَ شَهْرَيْنِ ، فَدُعِيتُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى
غُرْفَةِ الزَّائِرِينَ ، فَهَبِطْتُ إِلَيْهَا مَسْرَعًا عَلَى أَمَلٍ أَنْ أَلْقَى « بِيَجَوْتِي » قَدْ
جَاءَتْني بِبَعْضِ الْحَلْوَى وَالْهَدَايَا ، وَلَكِنِّي دَهَشْتُ كُلَّ الدَّهَشِ عِنْدَمَا رَأَيْتُ
فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ الْفَسِيحَةِ ، نَاضِرَ الْمَدْرَسَةِ جَالِسًا إِلَى مَائِدَةِ الطَّعَامِ ، يَلْتَهُمُ
مَا حَفَلَتْ بِهِ الْمَائِدَةُ مِنْ فَطَائِرٍ وَجَبْنٍ وَحَلْوَى وَإِلَى جَانِبِهِ زَوْجَتُهُ وَقَدْ
بَدَأَتْ مَفَكَّرَةً مَهْمُومَةً ، فَخَفَّتُ إِلَى وَأَجْلَسْتَنِي عَلَى بَعْضِ الْمَقَاعِدِ
وَجَلَسْتُ بِإِزَائِي وَهِيَ تَقُولُ :

— « إِنَّكَ بَعْدُ صَغِيرٌ يَا "دَافِيدُ" فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْرِكَ تَقْلُبَ الْأَيَّامِ

(وهذا ما فعلتُ ، لأن الطفل المسكين مات بعدها بلحظات) لما ارجو
أن يصبحنا دافيد إلى مقرنا الأخير ، وقولى له إن أمّه فى ساعتها الأخيرة
قد باركته ودعت له بالخير . »

وسكتت « بيجوتى » وأخذت تمسك يدها برفق على رأسى ووجهى ،
ثم عادت إلى الكلام وقالت :

— « وكان الليل فى هزيعه الأخير ، فطلبت منى الفقيدة العزيرة
أن أروى ظمأها بجُرعة ماء ، فلما شربت غمرتني بنظرة حادة من عينيها
الحميلتين وعند الفجر قالت لى : ” عزيزتى بيجوتى قربينى منك
(وكانت أشبه بخيال نحيف) وضعى ذراعك تحت عنقنى ، واقلبنى إلى
ناحيةك . . . إن وجهك يبتعد منى وأود أن أراه . ” فقامت بكل ما طلبت ،
فأسندت عندها رأسها إلى ذراع بيجوتى خادمتها القديمة ، ولفظت أنفاسها
وأغفّت كما يغفى الطفل الرضيع . »

فكنت أسمع هذا الحديث وقلبي يتفطر حزناً وأسى ، ويشكر لهدأتى
عنايتها وسهرها على أمى العزيرة . ولم يمر يوم واحد على توارى أمى وراء
تراب القبور ، حتى أنذرت الآنسة « مردستون » خادمتنا النوفية « بيجوتى »
بوجوب انقطاعها عن العمل فى المنزل ، وأمهلتها شهراً . أمّا أنا فما من
كلمة واحدة تشير إلى شأنى ومستقبلى ، ولقد تشجعت ذات مساء وسألت
الآنسة « مردستون » متى أعود إلى المدرسة فأجابت أنى لن أعود إليها

— « سواءٌ رَحَلَ معك أم بقي معنا ، فسوف يضيع وقته عبثاً ، فهو غلامٌ كَسُولٌ بليد لا يُرْجى منه أى نفع كان ، ولسوف أحمل أخى على قبول اقتراحك ولو إلى أمدٍ قصير ، لأوفر عليه عناء الاهتمام فى هذه الفترة بهذا الأبله الحامل . »

وعند انقضاء المهلة التى مُنِحَتْها « بيجوتى » تركنا المنزل معاً ، ورحلنا إلى قرية شقيقها ، ونزلنا على القوم الذين عرفناهم فى تلك السفينة الغارقة فى الرمال .

وفى أثناء إقامتى بين ظَهْرَانِي هؤلاء الكرماء ، زُفَّت « بيجوتى » إلى السيّد « بركيس » ، و « بركيس » هذا هو الحوذى الذى ركبنا مركبته فى مجيئنا إلى القرية ، وركبتها أنا غير مرّة فى ذهابى إلى المدرسة وإيابى منها ، وكان الرجل مغرمّاً بصاحبتنا « بيجوتى » ، وكان قد طلب يدها مراراً ، فقبلت به زوجاً فى هذه المرّة وزُفَّت إليه ، ولعلها رضيت بالزواج ليكون لها بيتٌ تسكنه وتستضيفنى فيه عند الحاجة .

وغداة يوم الزواج ، تركتُ السفينة الغارقة ، وذهبت أقيم مع العروسين ، فخصّصت لى « بيجوتى » غرفة صغيرة ، أويتُ إليها ووضعتُ الكتاب الذى يَرْوِى قصة التماسيح على رفٍّ إلى جانب سريرى ، فقالت لى « بيجوتى » يوماً :

— « يا عزيزى ! هذه الغرفة غرفتُك مادمتُ أنا على قيدِ الحياة ، وسوف

أعنى بتنظيفها وترتيبها كلَّ يوم ، كما كنتُ أفعلُ في منزلك ، واعلم أن
لك في هذا المأوى غرفة خاصة بك سواء أقمْتَ بها أم كنتَ في أقاصي
الصين . »

فشكرتها على رقيق عافقتها، وأكبرت منها هذا الوفاء، وكم وددت لو بقيت في هذه الغرفة الحفيرة ناعماً بمحبة « بيجوتى » وعنايتها، ولكن المدة التي سمح لي فيها السيد « مردستون » وشقيقته بالتغيب عن المنزل كانت قد انتهت، فاستعدت « بيجوتى » لتصحبنى إلى المنزل في مركبة زوجها.

وصلنا إلى باب الحديقة فودّعتني «بيجوتى» وودّعتها وداعاً أليماً ،
وحبّيت زوجها ورحلت إلى ذلك المنزل الذي لم يعد لى فيه أحدٌ يعطفُ
على ويحبّنى .

عشتُ فيه وأنا في شبه عزلة ، وكان الشقيقان يُمْنَعَانِ في الجفاء
والقَسْوَةِ ، وَيُشْعِرَانِي بِأَنِّي عَالَةٌ عَلَيْهِمَا ، وَعَلِمْتُ عَرَضاً أَنَّ السَّيِّدَ
« مردستون » قد شَحَّ المَالُ في يديه ، فلا عجب إذا اتَّخَذَ ضَيْقَ رِزْقِهِ
سَبَباً فِي التَّبَرُّمِ مِنِّي وَمِنْ حَيَاتِي فِي كَتْنَفِهِ .

ولقد استدعاني يوماً إليه وقال لي :

— « تعلم أيها الكسول ، أنى لست غنياً ، فإن كنت تجهل هذا الأمر
فها أنا ذا أقفلك عليه ، ولا إخالنى قادراً أن أعيدك إلى المدرسة ، فلا طاقة

لى بنفقاتها ، وهبتي قدرتُ عليها فما أراك أهلاً للدراسة وتحصيل العلوم ... »
فنظرتُ إليه مدهوشاً من هذا الحكم القاسى علىّ ، وأخذت أتوقعُ
أونخم العواقب من هذا الحديث ، فاستأنف كلامه وقال :

— « فلا بُدَّ لك إذن من عمل تعلمه فتكسب منه بعض ما يقومُ
بأوَدك ... ولعلك سمعتَ بيتَ تجارى لبيع أصناف البقول والحبوب أملكه
فى " لندن " أنا والسيد " كينيون " الحاضر معنا هنا ، وفى ذلك البيت
التجارى كثيرٌ من الصَّبَّية العاملين فيه ، فستنضمُ إليه وتكفل بنفقاتك .
ورحلتُ فى صباح اليوم التالى مع السيد " كينيون " إلى " لندن " ،
وانخرطت فى سلك العاملين فى تلك التجارة ، وعُهِدَ إلىّ فى الصاق البطاقات
على زجاجات الشراب والصناديق التى تحتويها ، وكان يشاركنى فى ذلك
العمل أربعةُ غلمان يَدُلُّ مظهرهم على فقرٍ مُدْقِعٍ وطباعٍ لثيمة .
وفى مساء ذلك اليوم ، دعانى السيد " كينيون " وقد منى إلى رجلٍ
من أصدقائه يُدعى " مكوبر " وأخبرنى أنه استأجر لى غرفةً فى منزل
هذا السيد فرحب الرجل بى وتطوَّع أن يصحبنى إلى منزله لثلا أضلَّ
طريقى إليه .

وأفهمنى السيد " كينيون " أنه جعل راتبى ستة شلنات فى الأسبوع ،
ونقدنى راتب أسبوع مقدَّمًا لأستعين به على قضاء ما أنا فى حاجة إليه ،
فدفعتم من ذلك المبلغ ستة بنسات لنقل حقيبتى ، وستة بنسات أخرى



شيئاً من الأرز من دكان البقال فقلت لها :

— « وهل تعرفينه ؟ » فقالت :

— « وكيف لا أعرف منزل مخدومي . . . ولكن إن كنت جئت

تستئذي كفتها ، وتطلب منها أن تحسن إليك ، فعند عن هذا وعد

من حيث أتيت . »

— فكرت قليلاً في كلام هذه الخادمة ، فرأيت أنها لم تخطئ فيما جئت

من أجله ، ولكن كتمت عنها غايتي وصحبته إلى المنزل فأوصلتني إلى الباب

ثم تركتني عنده ، وذهبت إلى باب آخر تدخل منه إلى المنزل وهي

تقول لي :

— « هذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك . . وأنت وشأنك

بعد هذا ! »



فأخذ الرجل يدير رأسه في أنحاء السهو كمن يريد أن يتذكر أمراً
ثم قال :

— « ” داؤید کو بر فیلد “ .. نعم . نعم . هذا صحیح ! » فقالت
عمتی وہی تشير إلى :

— « هذا ابنه . . . وإليك السؤال الذى أريد أن أوجهه إليك . . .
ماذا عساي أصنع بهذا الغلام ؟ »

فحكَّ الرجل جبينه وقال :

— « ماذا عساك تصنعين به ؟ » فقاطعتها قائلة :

— «أجل ماذا عسای أصنع به... حذار!! أريد منك رأياً خَمِيراً.»

فَنَظَرَ إِلَى السَّيِّدِ « دِيَاك » نَظْرَةً عَابِرَةً وَأَطْرَقَ هَنِيئَةً ثُمَّ قَالَ :

— « تبدئين أولاً بالسَّحاح له بالاستحمام . » فصاحت عمتي صريحة

الظافر المنتصر وقالت للخادمة :

— « "جانيث" ! أوقدي الحمّام . إن السيّد "ديك" لأعلى حق

« وصواب .

وأدهشني أن أرى الرجل يتألق وجهه سروراً من المديح الذي غمرته به عمتي ، وتخيلته رجلاً لا يخلو من البلاهة ، ولكنني لم أستطع أن أفهم كيف يُقيم مثل هذا الرجل في منزل عمتي .

وَأَنعَشَنِي الْحَمَامُ فَخَرَجْتُ مِنْهُ نَشِيطًا قَوِيًّا وَجَاءَنِي عَمَّتِي بِقَمِيصٍ مِنْ

فأُعيدَ السرير ، واستلقيت إليه بقيّة النهار ، ونمت الليل كله نوماً هادئاً ، وفي الصباح نزلت إلى غرفة الطعام فلقيتُ فيها عمّتي مستغرقةً في تفكير عميق ، فنبّهتها دخولي الغرفة فصاحت عندما رأتني وقالت :
— « لقد كتبتُ إليه . . . » فقلت :

— « إلى . . . » فقطعتني قائلة :

— « إلى زوج أمّك . » فقلت مضطرباً :

— « أقلتِ له أين أنا يا عمّتي ؟ » فقالت وهي تهز رأسها :

— « نعم . » فقلت متلعثماً :

— « أو تدفعيني إليه يا عمّتي ؟ ! » فقالت :

— « لستُ أدري . . . سري . » فقلت يائساً :

— « يا إلهي . . . رُحّمالكِ يا عمّتي ولا تسمحي بأن أعود إلى السيد

”مردستون“ . » فقالت عمّتي :

— « لستُ أدري . . . سري . سري . »

وفي أثناء النهار حاولت عمّتي أن تعرف رأيي في السيد «ديك» فأثنيّت على ظرّفه ورقة حاشيته فقطعتني وقالت :

— « يقولون إنه مجنون مسلوبُ العقل . . . ويَلَدُ لي أن أعرف أنه

مجنونٌ مسلوبُ العقل وإلا ما تمتعتُ بصحبته ونصائحه منذ نحو عشر سنوات . . . إن السيد ”ديك“ حليفي ولست في حاجة إلى أن أبيّن لك

— «... أن يكن مجيئي إليك هو الجواب عن رسالتك ... فهذا الغلام الطائش الذي فرّ من أصحابه وعمله . . . » فقاطعت شقيقته قائلة :
— « والذي تلوح على سيئاته سمات طيشه وسوء أخلاقه . » فنهرها شقيقها وقال :

— « لا تقاطعيني . . . إن هذا الغلام يا آنسة ” تروتوود “ قد سبّب لنا متاعب جمّة ، فهو غلام ” ناثر متمرّد “ ، وكم حاولت أنا وشقيقتي أن نصالح المعوجّ من أخلاقه فما أفلحنا ... وها نحن أولاء قد جئنا ننفض إليك جليّة الأمر في صديق وإخلاص . » فقالت عمتي بلهجة جافّة :

— « هذا كثير ! » فقالت الآنسة « مردستون » :

— « الوقائع تثبت ما رواه أخى ، فقد ألحقه بعمل جليل ولكنه هرب منه . » فقالت عمتي تخاطب السيد « مردستون » :

— « لنبحث أولاً في هذا العمل الجليل ... فلو كان هذا الغلام ابنك ، أكنت ألحقته بذلك العمل الجليل ؟ » فقالت الآنسة « مردستون » تعجيب هي عن السؤال :

— « لو كان هذا الغلام ابن شقيقى ، لما كان شريس الأخلاق سيئ السلوك ! » فقالت عمتي :

— « يا للمسكين ! أوكلم يورثه أبوه أو أمه شيئاً ؟ » فقال « مردستون » :

— « كل ما تركه أبوه من مال ، كانت أمه قد أنفقته في سبيل



العيش قبل أن أتزوجها . وكيفما كان الأمر فإنى على استعداد لاسترجاع هذا الغلام ، شرط أن لا يدخل أحد بينى وبينه ، فأصنع به ومنه ما أريد . »

فقلت عمتى موجهة إلى السؤال :

— « وأنت يا "دافيد" أترغبُ فى الرحيل مع السيّد "مردستون" ؟ »
فتوسّلتُ إلى عمتى أن لا تدفعنى إلى السيّد « مردستون » وشقيقته فهما لا يحبّاننى ، ولقد ماتت أمى مقهورة أسيفة على ما كانا يُضمّـيران لى من كراهية ، فالتفتت عمتى إلى السيّد « ديك » وقالت :

— « يا سيد "ديك" ماذا أنا صانعة بهذا الغلام ؟ » ففكر السيّد « ديك » قليلاً ثم قال مبتسماً :

— « اذهبي به إلى الحيّاط ، وأوصى له على بذلة جديدة . » فصاحت عمتى صيحة المنتصر الظافر :

— « يا سيّد "ديك" هات يدك لأصافحها ... إن رجاحة عقلك وصواب رأيك أمرٌ لا يقدر . »

وبعد أن صافحت عمتى السيّد « ديك » جذبتنى إليها وقالت تخاطب السيّد « مردستون » :

— « إنى سأحتفظ بهذا الغلام ... فإن كان على مثل الأخلاق التى زعمتم ، فسوف أحذو حذوكم فى إصلاحه ، ولكنى لا أصدق

حرفاً مما قلتاه . . . مع السلامة يا سيّدى . . . مع السلامة يا آنسة ! «
وما كأدا ينصرفان حتى هجمت على عمّتى أعانقها ، وعلى السيّد
« ديك » أضافحه .

وتوثّقت أواصر الصداقة بينى وبين السيّد « ديك » فكنا نخرج معاً
إلى الحقول ، وأقضى أوقاتاً جميلة فى صحبته ، ولم تحل صداقتى دون أن
أحتفظ لعمّتى بأكرم جميل فى قلبى .

فرغنا ذات مساء من تناول العشاء ، ودخلنا البهو نسمر فيه قليلاً
فقالت لى عمّتى :

— « على » أن أعنّى يا « دافيد » بتربيتك وتعليمك ، أيسرك أن
تلتحق بالقسم الداخلى من مدرسة « كنتربرى » ؟ »

فسرّنى هذا العرّض وأجبت على الفور بنعم ، وإن يكن قد ساءنى
فراق عمّتى والسيّد « ديك » على أنهما وعدانى بأن يزورانى من حين إلى
حين .

ويوم أوصلتنى عمّتى إلى المدرسة ، استقبلنا فيها فتى فى نحو الخامسة
عشرة من سنه ، أحمر الشعر شاحب اللون ، قد انتثر النّمش فى خدّيه ،
ويكاد يخلو وجهه من شعر الحاجبين ، وتخلو جفونه من الأهداب ،
وكان يرتدى رداء أسود ويربط قميصه بربطة عنق بيضاء فقالت له
عمّتى :



٥

لست أدري أكنت مغتبطاً أم حزيناً ، يومَ أنهيتُ دراستي ، وحقاً
علىَّ أن أغادر المعهد الذي تلقيت فيه علومي ، فقد كنت في ذلك العالم
الصغير ، الفتى الذي يسترعى الانتباه ، ويحفّونه بكل أنواع الرعاية ،
ويقدرّون أخلاقه ومواهبه حقّ قدرها . ولئن عزّ عليّ مفارقة ذلك الفردوس
الصغير ، لقد سرّني أن أخرج إلى العالم الكبير ، وأشعر أنّي فيه رجل
حرّ مسؤول عما يفكر وعما يعمل .

تبادلتُ وعمتي الآراء فيما يختص بمستقبلي ، وبالعمل الذي أميل
إليه ، وكان ذلك هما الأكبر منذ أن تركتُ المعهد ، حتى إنها قالت

على أعماله ومصالحه حتى وثّقَ به كلّ الوثوق ، فأصبح لا يقوم بعمل من الأعمال ولا يتخذ رأياً من الآراء إلا بعد مشاورته والإذعان لرغبته . . . » فقاطعتها مدهوشاً مغضباً :

— « عجباً منك يا ” أنييس ” أتحدّرني من هذا الشاب ، ولا تحدّرني نفسك منه ؟ » فقالت كاسفة البال :

— « قبلتُ كل هذا حباً لأبي ، ولسوف أقبل بأكثر من هذا بيراً به وبشيخوخته ! ! »

والتقيت عَرَضاً في بعض الأيام بالفتى « هيب » وكنت منذ تحدّرتني « أنييس » منه قد تراخيت في لقاءه ومودّته ، فحيّاني تحيّة الرجل الهانئ السعيد ، وأخبرني أنه أصبح شريك والد « أنييس » وأنه الأمر الناهي في كل صغيرة وكبيرة من أعمال والدها وثروته ، فاستمعت له صامتاً حتى رأته قد بلغ منتهى الجراءة والقبحيّة حين ختم حديثه وهو يقول :

— « وفي نيّتي أن أشرف ” أنييس ” بطلب يدها ! »

وافترقنا وأنا أرثى لحال « أنييس » وأستعيد في ذهني ما كانت قد أنهتته إلى من أنها لن تُحجّج عن قبول أيّة توضّحية مهما جلّت وكبرت حبّاً لأبيها ، فقلت في نفسي : « إن لم يكن هذا الزواج هو التوضّحية الكبرى فماذا تكون إذن التوضّحية . . . أمثلُ هذا الفتى الوضع السيء الأخلاق الدميم المخلّق يكون زوجاً لمثل ” أنييس ” ملكي الحارس ؟ ! »

ولم تكن صاحبة الصوت الأنسة « دورا » بل صديقتها الأنسة « مردستون » ، فقلت بعد أن زالت عنى عوارض الدهشة :

— « كيف حالك يا آنسة ” مردستون “ ؟ لعلك فى صحة جيّدة ! »

— « على أتمّ صحة وسلامة ! »

— « وكيف حال السيّد ” مردستون “ ؟ »

— « إن أخى فى أوفر سلامة وعافية... أشكرك. » فقال الأستاذ « سبنلو » :

— « يسّرّنى أن أراك تعرف الأنسة ” مردستون “ معرفة قديمة ! »

فقلت الأنسة « مردستون » بلهجة هادئة قاسية :

— « إن بينى وبين السيّد ” كوبرفيلد “ صلة من النسب . . .

فقد عرفته قليلاً فى طفولته ، ثم فرّقنا الأحوال . » فقال الأستاذ « سبنلو »
يخاطبنى :

— « لقد تفضّلت الأنسة ” مردستون “ فقبلت أن تكون رفيقة ابنتى —

ورائدتها بعد إذ حرمت الأقدار ابنتى ” دورا “ حنان الأم وعطفها .

فحدّقت فى الأنسة « دورا » أدرس حركاتها وسكناتها فخيّل إلى

أنها لا تشاطر أباه رأىة فى أن تكون الأنسة « مردستون » صديقتها وموضع

ثقتها ، ولقد نزلت من قلبى أكرم منزلة منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها ،

وحرّكت نبرات صوتيها أوتار فؤادى فصارت أعزّ أمنية لى فى الحياة أن

أظفر بيدها وأن تصبح زوجتى .





وكان موضعى إلى مائدة العشاء فى جوارها ، فنسَيمت بحديثها وبصوتها
الساحر الحلو النغمات ، وأعجبتُ بكل حركة من حركاتها النبيلة الفتّانة .
وانتقلنا بعد العشاء إلى البهو ونسمرُ فيه ونتحدث ، وشغلت الأنسة
« دورا » أغلب الوقت فى الغناء والعزف على آلة تشبه القيثارة ، فقضيت
سهرة جميلة ممتعة لم تزدنى إلا شغفاً بالآنسة « دورا » وتعلقاً بجمالها ومواهبها .
وعندما تفرقنا وذهب كلٌّ منا إلى غرفته ، استوقفتنى الأنسة « مردستون »
عند باب الغرفة التى استضافونى فيها ، وطلبتُ إلى أن يتحدثنى قليلاً
فأصغيتُ إليها تقول :

— « لقد جمعتنا الأقدار بعد فراق ، ومهما يكن من أمر الماضى
الذى نحفظ منه بأسوأ الذكريات ، فلا إخالك إلا موافقاً على أن نسلل
عليه ستار النسيان ، ولا سيما أننا قد نتلاقى كثيراً بعد اليوم فى هذا المنزل
أو فى غيره من منازل هذه الأسرة ، فلا حاجة بنا إلى أن نذكى جمرَ
البغضاء الكامن تحت رماد الأيام فى قلوبنا ولا إلى أن نوفر للقوم أسباب
الشتمة فينا . . . » فقلت :

— « إني أوافقك يا آنسة « مردستون » على ما تقترحين ، ولكن تنى
أنى لن أنسى أبداً ما لقيته منك ومن أخيك من سوء المعاملة ، وما سببناه
لأذى من حزن وكآبة . . . »

وتبادلنا التحية المؤدبة ، وانقلت كلٌّ إلى غرفته . ولما لقيت الأنسة

بعد أيام قلائل معزياً وعدنا ذات يوم إلى مسكني ، فدهشت كل
الدَّهَش إِذ وجدت فيه عمّتي والسيد «ديك» . وكانت عمّتي جالسة فوق
تلّ من الحقائق في حين كان السيد «ديك» واقفاً بجانب عدد من الصناديق
الصغيرة فتلت صائحاً :

— « ما هذه المفاجأة السارة يا عمّتي العزيزة ! »

وتبادلت وإياها العناق والقُبُلات ، ثم صافحت السيد «ديك»
مصافحةً طويلة . أما «بيجوتي» فوقفت ذاهلة من ذلك اللقاء الغريب ،
وعلى ذلك النحو الشاذ ، ولكنها نفضت عنها الدهول واقتربت من عمّتي
والسيد «ديك» تحييهما .

وبعد صمت قصير التفتت إلى عمّتي وقالت في جدّ وخطَر :

— « دافيد ” هل اكتسبتَ من يدأ من الثقة بنفسك ؟ » فقلت :

— « أرجو ذلك يا عمّتي . » فقالت وهي مقطبة الحاجبين :

— « أواثق ” أنت ممّا تقول ؟ » فقلت :

— « أعتقد أني جيدٌ واثق . »

فنظرتُ إلى نظرة طويلة وقالت :

— « أتدري لماذا تراني جالسةً فوق حقائقي ؟ » فقلت :

— « كلا يا عمّتي . » فقالت :

— « لأنّ هذه الحقائق هي كلُّ ما بقي لي في هذه الحياة . . . »



أحقُّ الآن مني بهذا المبلغ ، والله يعلم كم يكلفني هذا الطالب ، فمستقبلي كله معقودٌ عليه . »

واجهت الأستاذ بهذا الكلام وأنا أعلم أن تنفيذ مثل ذلك الطلب سيحرمنى المضى فى طريق المحاماة ، بل سيرمىنى بعيداً عن « دورا » ويقفل بيننا باب اللقاء . ففكر الأستاذ « سبنلو » قليلاً ثم قال :

— « لو كنت وحدى المتصرف فى الأمر لأجبتك فى الحال إلى مطالبك ، ولكن هناك شريكى الأستاذ "جوركينس" ولا إخاله يقبل مثل هذا الطلب . »

فذهبتُ إلى الأستاذ « جوركينس » وعرضتُ عليه أمرى ، فرفض كلَّ الرفض ، وما كنت لأتوقع منه غير ذلك ، فهمة هذا الشريك ، على ما فهمته فيما بعد ، هي أن يرفض كلَّ ما يحيله عليه شريكه من مطالب لا يريد تلبيةً لها .

وخرجتُ من المكتب في همٍّ مُتَّعِدٍ مُقِيمٍ ، فقابلت في طريق « أنيس »
فأخبرتني أنها علمت بمجيء عمتي إلى « لندن » فهي ذاهبة لتحيتها ،
فسرنا معاً إلى المنزل ، وفهمت منها في أثناء الطريق أن عمتي بعثت إليها
برسالة قصيرة تنبئها فيها أنها أصيبت بمكروه ، وأنها راحلة إلى « لندن » . دخلنا
المنزل فألفيتُ عمتي وحدها ، فحيَّيناها وجلسنا إلى جوارها ، فأخبرتنيها
بما سعتُ من أجله فابتسمت وقالت :

ونهض والد « أنيس » بعد قليل ونهض معه « هيب » يريدان الانصراف فاستأذنت « أنيس » والدها في البقاء فترة قصيرة أخرى مع الأنسة « تروتوود » والسيد « دافيد » فسمح لها ولم يستطع « هيب » أن يوعز إلى والدها بغير ما رغبت فيه الفتاة ، فخرج معه يتعثر بأذيال الخيبة .

وقامت عمتي إلى بعض شأنها ومشيتُ أنا و « أنييس » إلى النافذة
نسرَّح النظر معاً في الأفق البعيد ونحن ساكتان ، والتفتُ إليها بعد حين
فرايتُ عينيها مغرورتين بالدموع ، فكفكفتُهما ثم أخذتُ تحدثني عن
« دورا » وتسهب في الثناء على جمالها وكماها ، وتلقى على تلك الفاتنة
التي سحرته أضواءً من صفاء نفسها وطهر سريرتها .





Y

لا أكذبُ اللهَ إن نكبةَ عمَّتِي قد هدَّتْ رِكنِي وقلبتُ أحلامي رأساً
على عقِيبٍ ، غير أنني آليتُ على نفسي أن لا أظهرَ لعمَّتِي في مظهر
الجاحد العاقِّ ، ففضَّلْتُها السابقَ علىَّ يقتضيني أن أعملَ آناءَ الليلِ وأطرافَ
النهارِ ، في غير ما مَسَّلَ ولا سَامَ ، لأثبتَ لها أني الفتى المقدام الذي لا يخيفه
العملُ الشاقُّ . كان علىَّ أن أحملَ فأسَ الخطَّابِ ، وأشقَّ لى طريقاً
في غابةِ المصاعبِ التي تكتنفي أشجارها من كل جانبٍ ، وتسدُّ علىَّ
السُّبُلَ .

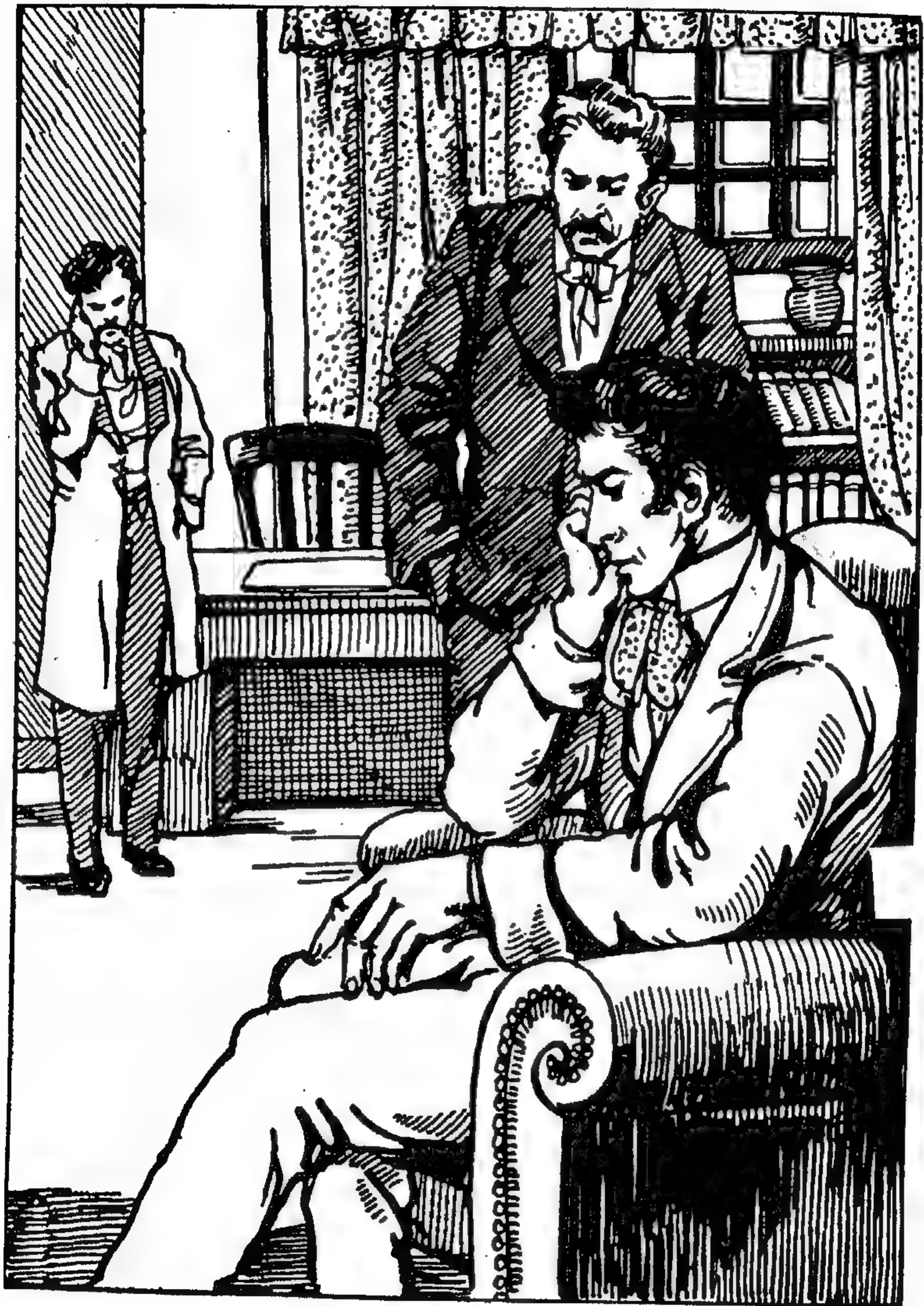
كنتُ على مثل هذا العزم عندما سرتُ في أصيل اليوم التالي إلى

من منزلى ، يقيم فيه ليلاً ، وينضم إلينا نهراً .

وجاء اليوم الذى رأت فيه « بيجوتى » أن تعود إلى قريتها ، فأوصلتها إلى مكتب السفر ، وانتظرتُ حتى أخذتُ مكانها من المركبة العامة ، فقالت لى والدّموع تتلألأ فى عينيها :

— « الآن يا عزيزى ” داڤيد “ أودّ عك وأستودعك الله ، وأرجو أن تعلم أنك إذا احتجتَ إلى بعض المال فى أثناء تمرّتك على الحمامة فأحق من يقرضك إياه هى خادمتك العجوز ” بيجوتى “ . » ثم همست فى أذنى قائلة :
— « ويوم تتزوج الأنسة ” دورا “ فأبلغنى حتى أحضر وأرتب لك منزل عرسك . . . هذا إذا سمحت لى بذلك . »

أى حلم هذا الذى تحدّثنى عنه « بيجوتى » ؟ إنه الحلم الذى تلاشى واضمحَلَّ فى يقظة النكبة . لقد ارتبط قلبى وقلب « دورا » منذ اللحظة الأولى برباط الحب ، وتعاهدنا بعد ذلك على الزواج ، وتررنا أن ننتظر الفرصة السانحة لرفع الأمر إلى أبيها ونظفر برضاه ، فالتقاليد الإنجليزية تحتم الحصول على رضى الوالد وموافقته . كان هذا قبل أن تضاب عمتى بكاريتها ، وكنت قد تريثتُ فى إبلاغ « دورا » بنبأ الكارثة متعلّلاً بما قد تفاجئنى به الأيام من رأى موفق ، ولكن عبثاً تريثتُ وانتظرت ، فمحالى لا تسمح لى بالزواج ، ووالد « دورا » لن يرضى أن تزف ابنته إلى فقير مُدَقِّع .



— « إنه مات ! »

فشعرتُ أن الأرض تغورُ تحت قدميَّ ، فاستندت إلى ذراع أحد الزملاء ، فأجلسني على مقعد وفكَّ عنيَّ ربطة العنق ، وأخبرني أن أستاذنا « سبنلو » قد مات فجأة ليلة أمس .

وشُيِّعت جنازةُ الراحل ، وقدمت أصدق العزاء لابنته « دورا » ، وتولَّى شريكه الأستاذ « جوركينس » ترتيب أوراق الفقيد الخاصة وتنظيم شؤونه ، فبدأ أن المسكين الراحل كان في فوضى مالية لا مثيل لها ، فما كان يعرف ماذا يكسب ولا ماذا ينفق ؟ واتضح أنه أنفق أموالاً ضخمة في الفوز بعضوية مجلس النواب ، وأنه ليس على شيء كبير من الثراء ، فلو صُفِّي موقفه ، ودُفعت الديون التي عليه ، لم يبق للمسكينة « دورا » إلا أقلُّ من ألف جنيه .

وتمَّت التصفية ، وبيع المنزل الريفي ورياش منزله « بلندن » ، واضطُرَّت « دورا » إلى مغادرة العاصمة والسُّكْنى عند عمَّة لها عجوز كانت تقطن في إحدى الضواحي .

وتقهقرت أعمال مكتب الأستاذين « سبنلو » و« جوركينس » من سيئ إلى أسوأ ، وضاق العمل فيه ، فأسفتُ كل الأسف على مبلغ الألف الجنيه الذي ذهب مع الريح ، دون أن أعوِّضَ عنه بتمرُّنٍ واسع مفيد . ورأيتُ ذات يوم أسيرُ في اتجاه منزل « أنيس » فدخلته ، فخفت



人

بلغت اليوم سنَّ الرُّشد، فعمري الآن واحد وعشرون ربيعاً ، وقد
روّضتُ هذا الوحش الضاري الذي يسمونه الاختزال ، وأصبح موردى
منه مورداً جليلاً ، وغدتُ واحداً من اثني عشر مختزلاً عهدت إليهم
صحيفة من صحف الصباح في أن يلتقطوا بالاختزال مناقشات البرلمان لنشرها
في الجريدة .

ولقد حاولَ صديقي «جياك» غيرَ مرة أن يحدو حدوى فما استطاع ، وأقرّ لى بعجزه ، وأكتمى بأن يلتقط للجريدة بعض الأخبار ، فيقدمها إلى من هو أَمهر منه فى الصياغة ، فيُنسبها للأسلوب الصحفى الأثير .

غير أن موافاة الجريدة بالأخبار قد درّ عليه بعض الرّزق ، فالتحق بمكتب أحد المحامين ، ووعدته بأن ينقده الرسم المطلوب وقدره مئة جنيهه (ويختلف هذا الرسم باختلاف شهرة المحامى) على دفعات متوالية .

لم أكتف بالأعمال التى أزاولها ، فأوحت إلى عزيمتى ومطامحى أن أدخل باب التأليف ، فقرعته مرتجفاً خائفاً ، وأرسلت أول مقال لى إلى بعض المجلات فنشرته ، فتشجعت وداومت على الكتابة ، فدخل على منها مورد لا بأس به ، وأصبحت جملة مواردى فى العام ثلاثمائة وخمسين جنيهاً ، وإنه لمبلغ وحقكم لا يستهان به .

انتقلنا إلى منزل آخر ، وأقبلت « بيجوتى » لتُعنى بتنظيفه وترتيبه . إن مهمة هذه المخلوقة أن تُعنى طول العمر بالتنظيف والترتيب . لقد وعدت أن تسارع إلى هذا العمل يوم أتزوج « دورا » وها هى ذى أحلامى تتحقق ، فتَرْضَى عمّة « دورا » بزواجنا ، ويحين موعد اليوم العظيم فتُزَفُّ « دورا » إلى فى محضر من الأحاباب .

عشنا معاً هانئَيْنِ سعيدَيْنِ ، وإن حفت حياتنا ألف مشكلة من مشكلات الخدم والحياة المنزلية . وآثرت عمى وعمتها أن لا تشا طرانا السكّن ، وأن تتركانا وحدنا عصفورين يتغنيان فى جنة الحياة ، وينتقلان من غصن إلى غصن ، وكنا نحن الاثنين على جهل تام بمطالب الحياة المنزلية ، فاستبدّ بنا الخدم ، وسرقونا ما شاء لهم الاستبداد والسرقة ، وكثيراً ما كنتُ

من ذلك السرّ الذي يبرّح بك ، واعلم أنك هنا بين نسفّر من الأصدقاء .
فقال وهو لا يزال يتتّجب :

— « إن رأيتُموني على مثل هذه الحال من الضّعْفِ والخَوَرِ ، فلأنّني
بين نسفّر من الأصدقاء ... تسألونني أن أبوح بالسرّ الذي يبرّح بنفسى ،
وكان الأولى أن تسألوني عما لا يبرّح بنفسى . . . إن عذاب نفسى ناشئ
من القسوة والسّفالة والتّزوير والدّسائس ، ومجموع هذا الهرَم من الرّذائل
يسمّى " هيب " . »

فدقّت عمتى يداً بيد ، وارتجفنا جميعاً ، فاستأنف « مكوبر »
حديثه وقال :

— « كلا . كلا . فما عدتُ أستطيع أن أغالب نفسى وأصارعها . . .
ولا عدتُ أقوّى على الحياة فى ذلك الصراع . . . »
فاقتربتُ منه وولدتُ إليه يدى فابتعد عني قائلاً :

— « لا . لا يا " كوبر فيلد " ! لا تمسّ يدى . . . حتى يعوّض
على الأنسة " أنيس " وعلى غيرها من الناس الضّرر الذى ألحقه بهم
" هيب " ذلك الثّعلب الماكر . . . أحفظوا جميعكم جيّداً بهذا الذى
أقوله : فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل . . . وفى ساعة الغداء . . .
عليكم جميعاً بدون استثناء . . . حتى العمّة الجلييلة وهذا السيّد الفاضل . . .
أن تحضروا إلى منزلى فى القرية التى أقيم فيها . . . فسوف تجدوننى هناك

له « هيب » :

— « ماذا تنتظر ؟ أما سمعتَ أمرى بالانصراف إلى عملاك ؟ » فقال
« مكوبر » وهو جامدٌ في موقفه :

— « بَلَى سمعت . » فقال « هيب » غاضباً :

— « ولماذا لا تمتثل لأمرى ؟ » فقال « مكوبر » وقد بدأ ميرْجَلُ
السُّخْطِ يَغْلِي في صدره :

— « لأنّنى لا أريد الامتثال لأمرك . »

فاحتقنَ وجه « هيب » ولكنه كظم غيظه وقال وهو يحاول الابتسام:
— « إنك رجلٌ مسكين . . . وجميع الحاضرين يعلمون ذلك . . .
وأخشى أن تُحوِجَنِي إلى طَرْدِكَ . . . فاخرجْ وسوف ألقاك بعد قليل . »
فانفجر سُخْطُ « مكوبر » انفجاراً عنيفاً وقال :

— « لو تجسّدَ الإجرامُ في هذا العالم لما تجسّمَ إلا في رجلٍ
يدعى " هيب " . »

فتراجع « هيب » كمن لدَعَتَهُ أفعى سامّة ، وأجال طَرَفَهُ فينا
جميعاً وقال يخاطبنا :

— « إنها إذن مؤامرة دَبَّرْتُموها ، وضربتم موعداً لتنفيذها في هذا
المكان . . . ياوح لى يا سيّد " كوبر فيلد " أنك تريد التواطؤ مع أجيرى
ولكن حذارٍ ! فأنا أعرفك وأنت تعرفنى ، وكلانا يضمّر للآخر الحقد

والبغضاء... إنك تحسدني على أن ارتفعت وأنت ما زلت عالِقاً بالأرض،
فجئت تشتري أجيراً لي هو من مُحالة المجتمع ، كما كنت أنت في ماضى
أيامك... أجل جئت تشتريه ليقذفني بالشُّهم والأكاذيب...
والتفت إلى « أنيس » ومضى يقول لها :

— « بحقُّ حُبِّك لأبيك يا آنسة لا تنضمي إلى هذه العصابة ،
ولا ألحقت بأبيك الخراب والدَّمار ! »

وتابع حديثه يخاطب « مكوبر » :

— « أقدم يا "مكوبر" إلى ممسك بك بين مخالي... وسوف
أحطِّمك تحطيماً ، فابتعد فما زالت لك هناك فرصة للنَّجاة ! » فقال
« جاك » في هدوء وسكون :

— « هلاً خفَّفت من غلوائك يا سيِّد "هيب" ؟ » فقال « هيب »
مغيظاً مُحسناً :

— « ومن أنت أيُّها الرجل لتفرض على نصحتك البغيض ؟ » فقال
« جاك » بلهجة خطيرة هادئة :

— « أنا صديق "السَّيد ويكفيلد" ووكيله الشرعيّ ، وفي جيبي توكيلٌ
منه يُبيحُ لي أن أتصرف باسمه وبالنيابة عنه في كل ما أرى من شؤون . »
وكان « مكوبر » قد اتَّفَق مع « أنيس » على أن تستكتب أباها
ذلك التوكيل سرّاً ، فلمَّا خرج هو و « جاك » من الغرفة دفع به إليه

وأفهمه ما يريد إفهامه . فقال « هيب » وقد جمحت عيناه وازداد امتيقاع لونه :

— « إذن لقد فقدت ذلك الحمار الأبله صوابه ، فانتزعته منه ذلك التوكيل تزويراً وتدليساً . » فقال « جاك » :
— « أعرف أن بعضهم قد انتزع منه أشياء تزويراً وتدليساً ، وأنت أعرف منا بذلك يا سيد ” هيب “ فإن شئت كلفنا السيد ” مكوبر “ أن يوضح لنا المسألة . »

فأخرج « مكوبر » على الأثر من جيبه مجموعة أوراق مطوية ، فنشرها وأخذ يقرأها بصوت جهوورى . وبعد أن استهلها بوصف الضائقة المالية التي رمته بين برائن « هيب » قرأ ما يلي :

« دفعتنى يوماً الفاقة والحنون إلى مكتب الشركة المعروفة باسم ” ويكفيلد وهيب “ ولم يكن يديرها فى الواقع إلا ” هيب “ ، و ” هيب “ وحده هو محرك تلك الآلة ، و ” هيب “ وحده هو اللص المزور . »

وتبدل وجه « هيب » من الصفرة إلى الزرقة ، فهجم يريد اختطاف مجموعة الأوراق وتمزيقها ، فكال له ” مكوبر “ ضربة أليلة من مسطرة كانت فى يده ، فرجع عنه مرغياً مزبداً مهدداً ، فقال له « مكوبر » :
— « حذار من الهجوم مرة أخرى وإلا دقت عنقك . »

فرجع عنه خصمه ، وارتقى إلى أحد المقاعد مقفل العينين ، وعاد



أحريق في هذا المنزل؟ فإن أجاب نعم وسألك عن رماد ذلك الدفتر فأحمله
إلى المدعو "مكوبر" يعلم منه أشياء لا تسره. « وعاد «مكوبر» إلى
القراءة :

« وَتَعَمَّدَ " هَيْب " عَلَى مَا ظَنَنْتُ وَعَلِمْتُ إِلَى التَّزْوِيرِ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي عِدَدٍ مِنَ الْأَوْرَاقِ وَالسَّجَلَاتِ وَالْوُثَائِقِ ، مُحَاكِئاً تَوْقِيعَ السَّيِّدِ " وَ " وَلَا سِيَّمًا فِي مَسْأَلَةِ اسْتِطَاعَةِ أَنْ أَقْدِمَ الدَّلِيلَ عَلَيْهَا : مَرَضُ السَّيِّدِ " وَ " وَكَانَ مِنَ الْمَتَوَقَّعِ لَوْ مَاتَ الْمَرِيضُ أَنْ يَضْمَحِلَّ نَفْوَذُ " هَيْب " عَلَى أَسْرَتِهِ ، فَسَلَبَ مِنْهُ تَوْقِيعاً عَلَى وَثِيقَةٍ يَعْتَرِفُ فِيهَا بِمَبْلَغٍ هَائِلٍ مِنَ الْمَالِ اقْتَرَضَهُ مِنْ " هَيْب " لِيَنْقُذَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْعَارِ ، فِي حِينٍ أَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ ، وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ تِلْكَ الْوُثِيقَةَ مَذِيئَةٌ بِتَوْقِيعِ شَاهِدٍ هُوَ " مَكُوبِر " .

هَذَا وَتَحْتَ يَدَيَّ جُمْلَةُ تَوْقِيعَاتٍ زَوَّرَهَا " هَيْب " فِي الدَّفْتَرِ الَّذِي أُحْرِقَ ، فَبَعْضُهَا مَطْمُوسٌ ، وَبَعْضُهَا ظَاهِرٌ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ النَّارُ . . .

وتحت يلى كذلك جميع الدفاتر والسجلات الخاصة بهذه الشركة ،
فقد أخذتها من الصندوق الحديدى وأودعتها مكاناً أميناً إلى أن يطلب منى
تقديمها إلى النيابة والقضاء .

إني في حياتي كلها لم أكتب مثل هذا التقرير ، فهذا الذي قرأته
صورة منه ، أما الأصل فقد دفعت به إلى السيد " جاك " .
وما كان أشد دهشتي عندما رأيت عمتي تهجم على " هيب " وتُمنّسِك

جميعاً شهوداً عليه ، ولما رأت عمتي ذلك الجيش الحرار من الأولاد سألت
(مكوبز) قائلة :

— « لماذا لا تهاجر يا سيّد "مكوبر" إلى "أستراليا" بدلاً من أن
تجرّر أثقال الحياة في "إنجلترا" ؟ » فقال :

— « لقد كان ذلك حلمي في عهد الشباب وما زلت أحلم به ، ولكن
المال هو الذي يُعوزني ! » فقالت عمتي :

— « إِنَّا مَدِينُونَ لَكَ بِالشَّيْءِ الْكَثِيرِ ، وَلَسَوْفَ نُوَفِّرُ لَكَ ذَلِكَ الْمَالِ . »
فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ تَخَاطَبُ عَمَّتِي :

— « وهل حالُ ذلك البلد ممّا يسمح لرجل ممتاز في مواهبه مثل زوجي ، أن يعلو في السلم الاجتماعي ؟ » فقالت عمّتي ضاحكة : « قلّما تضحك :

— « إنه البلد الذى يحتاج إلى مواهب زوجك وكفايته ! »





9

أَكْتُبُ هَذِهِ السُّطُورَ وَأَنَا أَذْرِفُ الدَّمْعَ السَّخِينِ عَلَى زَوْجَتِي «دُورَا»
لُورْدَةِ الصَّغِيرَةِ، فَبَعْدَ أَنْ أَعْمَلَ الدَّاءُ سِهامَهُ فِي جَسْمِهَا الْغَضَّ ، لَفِظْتُ
نَفَاسَهَا بَيْنَ ذِرَاعِي «أَنِييس» وَخَلَّفْتَنِي لِلْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحَسَرَاتِ ، حَتَّى
سَوَدَّتْ الدُّنْيَا فِي نَاضِرِي ، وَدَبَّ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِي ، فَأَصْبَحْتُ لَا أَرَى
لِخَلَاصٍ مِنْ دُنْيَايَ الْمَثْقَلَةِ بِالشُّجُونِ وَالْأَحْزَانِ إِلَّا بِالْمَوْتِ وَسُكُونِ الْقُبُورِ .
نَصَحُونِي بِالسَّفَرِ التَّمَاسَا لِلْعِزَاءِ وَالسَّلْوَانِ ، وَيَغْلُبُ عَلَيَّ ظَنِّي أَنَّ «أَنِييس»
بِالَّتِي أَوْحَتْ بِذَلِكَ ، فَقَدْ لَمَسْنَا جَمِيعاً مِنْهَا فِي أَيَّامِ مَحَنَتِنَا الْكَبِيرِ مُحِبَّةً
تُوصَفُ ، وَرِعَايَةً لَا تُذَكَّرُ إِلَّا مَشْفُوعَةً بِأَجْمَلِ آيَاتِ الشُّكْرِ . وَلَسْتُ



سليم "مُخافى جسماً وفكراً ، وستراها هي على ما عرفت من جمالها وحنانها
وطيب عنصرتها . »

فيا له من ثناء جميل على « أنبيس » ! ويا له من عتاب مرّ لي !
يفهمني أني كنت قد ضللتُ السبيل ، فعادت عمّتي تقول والدّ معُ يملأ
عينها :

— « إن الفتيات اللواتي تُعَلِّمُهُنَّ وتُغرس فيهن مثل فضائلها ،
سيكنَّ ولا شك زهراء المجتمع . » فقلت بصوت عال وأنا أحسبني
أهمس في نفسي :

— « ألم تصادف ” أنيس ” ... » فقالت عمى مقاطعة :

— « تصادف من ؟ تصادف ماذا ؟ » فقلت :

— «رجالاً يرغب في تزويجها...» فقالت عمتي في كبرياء المستنكر:

— « طلب يَدَهَا عشرات . . . بعد رحيلك . » فقلت :

— « لا شك في ذلك ... ولكنها هل وجدت الرجل الذي يслиق بها ؟

فمثل " أنيس " تعرف أن تحسن الاختيار . »

فسكنت عمتي هنية معتمدة ذقنها بيدها ، ثم رفعت رأسها وقالت :

— « يَخِيلُ إِلَى أَنْ لَهَا حَبِيبًا تَوَثَّرَهُ عَلَى غَيْرِهِ . » فَقُلْتُ :

— « وهل يباد لها ذلك الحبيب الحبّ ؟ » فقالت عمّتي جادة :

— « لا أعرف، وليس من حقّي أن أوكد ما فهمتُ به، فما حدّثتني

بذلك قُط ، وإنما هو أمر أتخيلهُ . »

ثم نظرتُ إلى نظرة الواجف القَلِق ، فأيقنتُ أنها توغَّلتُ في أعماق
نفسى ، ثم أنهينا الحديث وتوجَّه كلُّنا إلى غرفته .

وفى اليوم التالى رحلتُ عن القرية عائداً إلى العاصمة ، وذهبتُ عند
الأصيل إلى منزل « أنيس » وطلبتُ من الخادمة التى فتحت لى الباب
أن تبلغ الأنسة « ويكفيلد » أن بالباب رسولاً من قبَلِ صديق لها يطوف
بالبلاد الأوربية ، فأدخلتنى إلى البهو ، وذهبتُ تبلغ سيِّدتها ، فضيَّتُ
إلى النافذة أسرَّحُ منها الطَّرفُ فى المنازل المقابلة ، فلما أحسستُ الباب
ينفتح ورائى ، ارتجفتُ كلُّ أوصالى ، فالتفتُ فرأيتُ « أنيس » تنظر
إلى نظرتها الهادئة الحميلة وهى واقفةٌ مضطربة فقلت :

— « عذراً يا ” أنيس “ إن أنا فاجأتك بهذه الزيارة . » فقالت :

— « إنى سعيدة برؤيتك يا ” دافيد “ . » فقلت :

— « بل أنا السعيد بالعثور عليك ولوبعد حين . »

فسكتتُ وسكتُ برهة قصيرة ، ثم جاستُ وجلستُ إلى جانبها ،
ورأيتُ فى وجهها الصبيح أسارير الفرح المغتبط ، وقسمات الشقيق
الحنون ، فاختلفتُ جوانحي وعصمتنى الألفاظ حتى فتح الله علىَّ فقلت
لها :

— « حدثينى عنك يا ” أنيس “ كيف حالك وماذا تفعلين ؟ »



1

مرّ على رجوعى إلى « لندن » نَحْنُ من شهرين ، واقتربنا من عيد الميلاد ، ولقيت « أنيس » غير مرة فى هذه الأثناء ، وتوالى على ثناء المعجبين ، ولكننى كنت أؤثر عليه مديح « أنيس » وتشجيعها ، وعاد الحزن مع هذا يقرضُ بينابه جوانحى وفؤادى ، فكنت أحاربه بالعمل المُجهَد المُضَتّى ، وبالإستسلام أحياناً إلى الرياضة .

وكنتُ إذا قرأتُ على « أنيس » بعض الصفحات مما أُجبرُّ وأدبُّج ،
ورأيته تُصغى إلى ضاحكةً حيناً وباكيةً حيناً آخر ، أو سمعتها تشترك
في هذا العالم الذي تخلقه يراعى محتفياً به مكرثة له ، علمتُ أية حياة

مَنَا إِلَّا وَجْهًا جَامِدًا لَا يُفْصِحُ عَمَّا فِي سِرِّرَتِنَا، وَكُنْتُ قَدْ اتَّفَقْتُ وَ«أَنْبِيس»
عَلَى هَذَا إِمْعَانًا فِي مَفَاجَاةٍ عَمَّنِي .

وحضر السيد « ديك » في هذه الأثناء فتوجهنا كلنا إلى المائدة لتناول طعام الغداء ، وانتظرتُ حتى فرغنا من الأكل وانتقلنا إلى البهو فقلت أناطب عمّتي :

— « نَسِيتُ يَا عَمَّتِي أَنْ أَخْبِرَكَ أَنِّي حَدَّثْتُ "أَنِّيْس" بِمَا أَنْهَيْتَ بِهِ
إِلَى "مَنْ ظَنُّونَكَ . »

فاحمرّ وجه عمتي ، ونظرتُ إلى شَزْرَاءَ ، فاستأنفتُ حديثي قائلاً :
 - « اطمئني بالألّا يا عمتي فإنّ ” أنييس “ غير شقيّةٍ بغرامِها . »
 فازداد وجهُ عمتي احمراراً كمن شعر بانهميارٍ صرح أحلامه ، فرأيتُ
 من صَوَابِ الرأى أن أختم مداعبتى ، فأمنكت بيد « أنييس » واقتربتنا
 من مقعدها وركعنا عندها ، ففهمت أننا خطيبان ، فأنهالت علينا تقبلتنا
 وتزجرنا حيناً على أننا كتمنا عنها هذا الخبر المفرح ولو ساعاتٍ قلائل .
 وأقبل علينا السيّد « ديك » و « بييجوتى » يغمراننا بالتهنئات واستسلمنا
 جميعنا إلى دَوَاعى الأفراح .

واحتُفِلَ بزواجنا بعد أسبوعين ، وشهده النخبة القليلة من أصدقائنا ،
ولما دخلونا أنا و « أنيس » معا قالت لي :

— « أما وقد أصبحت زوجي فأرى لزاماً عليّ أن أبوح لك بسر كنتُ



ومهما ابتعدنا عن أرض الوطن ، فقلوبنا معالقة به ، ونفوسنا فخورة
بالنابغين النابهين من أبنائه ، فاستمر أيها النسر العظيم في تحايقلك ، توفر
للعالمين عامة ، ولأصدقائك من سكان " أستراليا " خاصة مطيراً جميلاً
فوق سحب الفكر ، يتبعونك فيه على أجنحة المتعة والفائدة وفيهم
صديقاتك القديم

القاضي " مكوبر " .

واستضيفنا السيد « بيجوتى » عندنا طول إقامته « بلندن » ولم تزد عن
شهر ، وأقبات عمى وشقيقة « بيجوتى » تزورانه وتتمتعان بلقائه ،
وحينما قرر الإبحار عائداً إلى مهجره ، ودعاه أنا و « أنييس » وحملائنا
إلى أصدقائنا هناك عطيّر السلام .

* * *

تلك هي قصتي ، فكلما التفت بعين البصيرة إلى الوراء قبل أن أختم
هذه الصفحات ، رأيتنى و « أنييس » إلى جانبي نتابع رحلتنا في طريق
الحياة ، وكثيراً ما أسمع على طول ذلك الطريق أصواتاً عزيزة على .
والآن وأنا أكاد أفرغ من مهمتى ، تجيش الذكريات فى صدرى
فلا أستطيع لها دَفْعاً ، وفى وسط السماء التى تتألق فيها نجوم هذه الذكريات ،
كوكب ساطع يغمرنى بنوره السماوى ، إنه وجه ملكى الحارس وجه زوجتى
« أنييس » .

وقبل أن أريح القلم التفتُّ إلى يميني فوجدتها كعهدي بها جالسة إلى
جوارى مشرقةً الوجه بسامة العينين ، إن المصباح يكاد ينطفئ ، والفجر
يكاد يلوح ، و « أنيس » التي لولاها ما كنتُ شيئاً مذكوراً ، جالسة
في صمت وسكون إلى جوارى يمدّني حبها بالعزيمة ، وينير لي وجهها
الوضّاح سبيل الفوز والنجاح في هذه الحياة . . .



١٩٩٤ / ١٧٢١	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4336-1	الترقيم الدولي

١ / ٩١ / ٣٨٥
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

أقلام

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة
تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات
البطولة والشجاعة والإقدام.

ظهر منها:

- | | |
|-------------------------|--------------------------------|
| ١ - عمرون شاه | ١٧ - مقبرة الأفيال |
| ٢ - مملكة السحر | ١٨ - الربان بلود |
| ٣ - كريم الدين البغدادي | ١٩ - تيودورا |
| ٤ - آلة الزمن | ٢٠ - أوليفر تويست |
| ٥ - الأمير والفقير | ٢١ - دافيد كوبر فيلد |
| ٦ - كتاب الأدغال | ٢٢ - في مهب الريح |
| ٧ - بينوكيو | ٢٣ - الفخ الذهبي |
| ٨ - نبوءة المنجم | ٢٤ - عودة المحارب |
| ٩ - روبن هود | ٢٥ - حصان طروادة |
| ١٠ - دون كيشوت | ٢٦ - نساء صنفيرات |
| ١١ - ايفنيسو | ٢٧ - توم سوير |
| ١٢ - جزيرة الكنز | ٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن |
| ١٣ - كنوز الملك سليمان | ٢٩ - الربان الجريء |
| ١٤ - سجين زندا | ٣٠ - العم نعمناع |
| ١٥ - الزنبقة السوداء | ٣١ - أم حنان |
| ١٦ - مون فليت | ٣٢ - كوخ العم توم |